الشعانين غداً

كل الاطفال المسيحيين محمولين على اكتاف آبائهم او سواعد امهاتهم، كل الاحداث المعتزين ببهائهم يذهبون الى العيد والبالغون يفرحون بالطفولة. طواف بالنخيل الذي يزهر كلبنان واغصان الزيتون توقاً الى السلام الذي يعلنه الفادي بعد ايام بموته. الاناجيل الاربعة تعلنه ملكاً. "مملكتي ليست من هذا العالم". تهليل الاصدقاء لا يحجب عن فكره ان اورشليم قاتلته مع احبارها والكبار. "انه ينبغي ان يموت واحد عن الأمة"، هذا ما قالته القيادة الدينية. مت لئلا يموت اسرائيل. السياسة اليهودية العليا كانت تقضي بانهاء الرجل. انه مجرم لانه كسر الاسوار التي كانت الامة تحيط نفسها بها. الامم يجب ان تدخل ميراث الرب واسرائيل يأبى ذلك. الانسانية الجديدة كلها مختارة. انها لكذلك اذا عرفت ان تقرأ من خلال هذا الرسول حب الله لها. وهذا كله يقتضي ان تعبر بالموت، بإماتة آلهتها القديمة وأساطيرها. في صلب الشهوة وانبعاث الحرية في نفس طهور. "من يحب نفسه يهلكها".

اما ان ترددت النفس بين المسيح ودنياها فلقد سمعته مرة يقول: "انا ان ارتفعت عن الارض اجذب الي الجميع". انت رفيع يا سيدي ولذلك تجذبنا كل يوم ولكن هات يدك لئلا نضعف.

ماذا فعل يسوع بين دخوله اورشليم والمساء الذي اتكأ فيه مع الاثني عشر وناولهم العشاء السري؟ لم يهتم الانجيليون بتدوين اعماله يوماً فيوماً. لوقا يوضح انه "كان يعلّم كل يوم في الهيكل". وهنا ابتدأت التحديات. واخذ يقترب من قمة الصدام وكان هو ينتظره واعلن عنه لتلاميذه غير مرة.

غير ان متى يسهب في الكلام على مضمون هذه الايام كلاماً وعملاً. فعند بلوغه المدينة التي كان يُظن انها مقدسة بالهيكل دخل الهيكل "واخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام وقال لهم: مكتوب بيتي بيت صلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارة لصوص". اكلته الغيرة على هذا البيت الذي سوف يقتل المعلم. ذهب عمله هذا قوة في كل الذين يأبون الاتجار باسم الله ويخلطون منافعهم بديانة البسطاء. وبقي يسوع هكذا شاهداً على كل الكذب في القيادات الروحية في كل دين كائنة ما كانت الالقاب. وبقيت شهادته ناطقة على من اجتاح البلد باسم الوطنية.

في ذلك المساء الاول بات في بيت عنيا وعاد الاثنين صباحاً الى المدينة وجاء الى الهيكل ايضاً واخذ يعلم بأمثال تشير كلها الى موته. وقد فهم ذلك رؤساء الكهنة والفريسيون. هؤلاء للمرة الاولى يجتمعون. ولما اخذ التعليم عن الملكوت يتصاعد اخذت المكيدة تقوى ثم يتبسط في التعليم ويصطدم بوضوح ما بعده وضوح في الإصحاح الثالث والعشرين من متى ويطلق الرب الويلات على الكتبة اللاهوتيين والحزب الغيور على الله، الفريسيين. وتعلو عنده لهجة التوبيخ. ينعتهم بالجهل والعمى.

كل هذه الكلمات قيلت ربما في يوم واحد اذ يقول الكتاب انه مضى من الهيكل الى جبل الزيتون. نحن اذاً مساء الاثنين. الارجح انه بات في كرم الزيتون في العراء وعاد يوم الثلثاء الى المدينة لكي يتنبأ عن خراب الهيكل ونهاية اورشليم. ثم يعود الى المدينة ليتابع تعليمه بأمثال ثم ليعلم عن الدينونة حتى يصل الى هذا القول: "تعلمون انه بعد يومين يكون الفصح وابن الانسان يسلم ليصلب".

الثلثاء مساء هو في بيت عنيا من جديد يتعشى في بيت سمعان الابرص ويبيت غالبا عند لعازر ومرتا ومريم. من هناك يبعث بتلاميذه الى المدينة يوم الاربعاء غالبا ليعدوا له الفصح. كل هذا كان إعدادا لسر المحبة التي اعلنها لما كان المساء واتكأ مع الاثني عشر.

* * *

رافقت العبادات البيزنطية كل هذا لتجعل الاحداث الانجيلية داخلة النفس فتشدها الى التوبة. فليس الاهم ان تقرأ ما حصل ولكن ان تستدخله قلبك معنى وحركة. لذلك تتوالى ثلاث امسيات تسمى ليالي الختن باللغة المحكية والختن كلمة رسبت على صورتها السريانية وتعني العريس والمراد به المسيح عريس النفس المؤمنة به. تنسج الكنيسة على مثل العذارى العشر وتدعو النفس الى ان تبقى يقظة لاستقبال العريس وتتلقى حبه.

وبعد ان تتلو علينا الاناجيل كما وردت في سياق متى ليلة بعد ليلة كما ذكرنا وقبل هذا وبعده نوغل في الانشاد حتى نصل الى القول: "إني اشاهد خدرك مزينا يا مخلصي، ولست املك لباسا للدخول اليه، فأبهج حلة نفسي يا مانح النور وخلصني". هذا نسج ايضا على مثل العذارى العاقلات منهن دخلت مع العريس الى مسكنه. ولكن هنا يرجو كل من صلى انه سيصير عروسا اذ يشاهد الخدر وهو الغرفة الزوجية. ولكن ما من نفس تقدر ان تجعل ذاتها عروسا اذ تحتاج الى حلة من نور تؤتاها من داخل الخدر ويعطيها العريس نفسه.

غير ان مشاركة العرس تقتضي اهلية. "هلم نصحبه بضمائر نقية، ونصلب معه... لكي نعيش معه". الحدث الذي اتمه المسيح يجب ان ينعكس حدثا فيك حتى ساغ القول ان ما لم يدخل نفسك من المسيح يجعله بالنسبة اليك فقط حكاية تحكى وعلى الاكثر اغنية تغنى.

هكذا تتوالى الايام وتأتي المتغيرات على الموضوع نفسه. العلاقة بيننا وبين يسوع تبقى قضية عرس. في الختن الاول التمسنا ان يخلع علينا السيد ثوب ضيائه. هنا نخاف: "في بهاء قديسيك كيف ادخل انا غير المستحق؟ لأنني ان تجرأت على الدخول معهم الى الخدر يبكتني لباسي اذ ليس هو لباس العرس". التوبة وايضا التوبة. ان كل ما جرى في المعلم انما كان من اجلها. تدعو الجماعة المقدسة كل واحد الى الاعمال الصالحة.

في الليلة الاخيرة نقيم ذكرى المرأة التي دنت الى السيد لما كان عند سمعان الابرص ومعها قارورة طيب فأفاضته على رأسه وهو متكئ. لا يقول متى ولا مرقس اللذان اوردا الخبر ان المرأة كانت زانية. هل إلحاحية التوبة جعلت الشاعر الطقوسي يطلق عليها هذه التهمة ليزيد اخلاصنا في الرجوع الى الرب ويزيد بكاؤنا؟

شاعرة في اواخر الالفية الاولى اسمها كاسياني مطوبة عندنا تماهت وهذه المرأة واعتبرت نفسها خاطئة لما اعلن امبراطور الروم رغبته في الزواج وارسل اعيان المملكة ليأتوه بأجمل الفتيات ليختار احداهن زوجة. ذهبت كاسياني وهي راهبة فأحبها الملك فأحسّت انها خانت فكريا نذر عفتها فعادت الى صومعتها وكتبت هذه القصيدة الرائعة. جنّ الملك بها وعرف هويتها وادرك صومعتها وكانت قد احست بدنو العسكر. دهم الملك الصومعة ورأى القصيدة على مكتب الراهبة ناقصة فأكملها حتى وصلت الينا القطعة كاملة. عشق من هذه الدنيا جميل وسقوط عفيفة اشتهت الملك فعادت عنه شهيدة للعشق الالهي ونحن نسعى الى هذه المحبوبية حتى لا نرمى في النار ونستحق رؤية الفصح.

المطران جورج خضر